خطرات وذكريات

في التفاؤل والتشاؤم

للاستاذ منصور جاب الله

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتذمم التشاؤم ويبدى القول ثم يعيده فى تهجينه وتشنيعه ، إذ كان الإسلام قريب عهد بالجاهلية، وكان للتفاؤل والتشاؤم دولتهما فى تسيير شؤون الناس. وكان عليه الصلاة والسلام خبيراً بطبائع الناس وأمور معايشهم ، وإذ بصر بالتطير يتهم شائما فى الخطب الجسام وفى الأمر الدرن نهى عنه وبغضه تبغيضاً شديداً ، حتى لقد قرن التشاؤم بوقوع الشؤم ذهابا مع ما يستشعره الوجدان من خفى النوازع ومتضارب الخوالج ، ثم يكون عليها بعد ذلك من صميم الواقع شهيد

وللرسول الأعظم أحاديث كثيرة فى ذم التشاؤم مبثوثة فى الأسانيد الصحاح ، وإنها لخير مرجع للرائد والباحث فى علوم النفس

ولقد كان للتفاؤل والتشاؤم أثرهما فى حياة الكثير من أعيان الأدباء والساسة . وعرف عن ابن الرومى أنه كثير التطير والتوجس فأغرت به هذه الميزة من الضعف عداته وحساده ، وطوعت لهم أنفسهم أن يتخذوا له من هذه الرذيلة مقتلا يفوقون

عمرو بن قميئة وطرفة بن العبد والخرنق أخته والمتلمس والأعشى

وهو قدر كفيل أن يهدينا إلى معرفة واضحة لأحوال تلك القبيلة

وإذا درست على هذا النمط كل قبيلة وتضامت أخبار القبائل ووضح بعضها بعضا أمكن أن يكون بأيدينا تاريخ لهذا العصر أوضح وأصح وأثبت من هذه الروايات المبثرة المشوبة بكثير من الخيال والمبالغة

ابراهيم مصطفى

من خلاله سهام حقدهم وكيدهم ، ويثيظوه ويردوه عن مكاسبه ، فكانوا إذا أرادوا به كيداً أرسلوا إليه من يتطير باسمه ، فظل الرجل نهاره ثاويا فى داره لا يبرحها وحوله أولاد جياع وأكباد تحن إلى القدر

ولقد انفسحت رقعة الحضارة واستقام ميزانها ، وارتفعت العلوم وانبسط رواقها، وانفتقت الأذهان إلى غاية مداها، ولكن النفوس بقيت مطوية على ما كانت عليه قبل عهد ابن الرومى وقبل أعصار الجاهلية من التطير وعكسه ، والإيمان بهما إيمانا أعمى ليملك على الانسان نفسه من سائر أقطارها

ذلك لأن التفاؤل والتشاؤم منزعان من منازع النفس البشرية جبلت عليهما فأصبحا من تلك العادة التى تتعلق بالفطر والطباع ، وأمسى أمرا اكتناهها مما يعمى الأفهام ويتيهم على العقول. وليس يمكن الوصول إلى تجريد النفس من التطير مما نرى فيه نحسا ولو على سبيل التظنى والتوهم ، إلا إذا يسر النفاذ إلى مداس الخوالج النفسية ، وهان الوصول إلى أعمق ما يتحرك به الحس فى أطواء الروح ، وهذا ولا ريب من بعض المحال . وهيهات أن يبلغه عقل بحال من الأحوال !

للتفاؤل والتشاؤم دوافع وأسباب قد تتحدر فى أصلابها إلى ما يقترن بالواعية الباطنة ، أو ماوراء الوعى كما يقول علماء النفس، أو ترتد إلى مراجع أخرى لها مقوماتها فى علم النفس التجريبى ، وهذا مالا نجرؤ على القول فيه فى كثير ولا فى قليل لئلا يزل القلم ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه

وواقع الأمر أن المرء ما يستطيع مدافعة التطير نوحى من عقله الواعى إلا على مضاضة وتململ وبرم ، كذلك الإنسان إذا عراه ما يضحك فلابد له من الاستضحاك ، أو دهاه ما يبكى فلا غلبة من الاستعبار . وإذا هو كبح جموحه كبحا ، أو كبت نشيجه كبتا فهو معانى الأمرين بغير مشاحة . وكثير من الناس يتطيرون ويسرفون فى الطيرة ويحسبون أنهم مانعهم تشاؤمهم من وقوع الشؤم وهو لا يغنى عنه شيئا . وفى التطير ما فيه من الثورة بالقدر والاعتراض غير المجدى على حكمة الخالق ، وتشنى ما قضى به جل وعلا . ولعل هذا المعنى هو ما قصد إليه سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام

والتفاؤل هو الجانب الإيجابي الآخر ، ولا يذهب في الضرر البالغ مذهب التشاؤم إلا إذا أسرف فيه إلى حد يصيره إلى غاية الهوس أو الركون إلى الحياة الرتيبة الكسلى ، أو التسليم بالأمر الواقع تسليما يؤدي بالمجتمع إلى التداعي والخور ، وعلى أي الحالين واجب الإنسان أن يكون قواما بين التفاؤل والتشاؤم، وعدلا بينهما ومقسطا ، فلا يسرف في جانب ولا يقتر في جانب ، وإلا فالضرر واقع لا محالة

* * *

وليس ما تقدم به الكلام تمهيداً بين يدي بحث علمي فالنا في هذا المجال يدان ، وإنما هو تقدمة لبعض ما يتصل بموضوع التفاؤل والتشاؤم ، فلقد عبرت بي حوادث جمة في هذا السياق ، عفى الزمان على الكثير منها وبقي في لوحة الذاكرة نزر يسير . وما أنس لا أنس حادثين وقعا لي مع بعض أصدقائي في زمنين متفاوتين ، وكان في نفسي منهما أثران قويان ، أحدهما إيجابي والآخر يميل إلى الجانب السالب ، وإني لمثبتهما فيما يجيء من السطور

في إحدى غدواتي إلى القاهرة توبت إلى متجر صديق لي ، حائك ثياب ، وما اقتعدت بيابه حتى أقبل علي بعد ديباجة من التحية بألوان من الشكاية والضجر ، ذلك لأنه قد جازت به طائفة من الزمن وبداه صفر من المال ، وبضاعته المزجاة . ضربتها السوق بالبوار ، فتبطلت أنامله عن لفق الثوب وخيط الدثار

وطفق يحدثني صاحبي عن مضائكه التي يلقاها في حياته وخصاصة موارده وعجف مكاسبه في أسلوب يستقطر العبرات الغوالي ، حتى لقد ذهب إلى أنه لا ينصرف ذياك النهار وينعدم مساؤه إلا وقد آل الله علي بنيان متجره من القواعد ، أو أني هو على منواله الواحد تلو الآخر وتركه على عروشه خاويا ، وزين لي أن لو قد خرجت عن يد وجدت عليه من وفاضي الخاوي بجزء من عشرة من الدانق لتقبله منتبطا عطاء غير مردود ولا ممنون !

وإذ هو سادر في شكايته ، وأنا أصيخ إليه السمع متوجعاً مستريبا على نكره واستثقال ، هبط علينا فتى أمرد تأخذه العين ، تبدو عليه أمارات النعمة ، ويبين النبيل في أطرافه ، ويضوع الطيب من أردانه وأعطافه، فسلم ثم سلم على غير سابق استعراف، وجيء له بكرسي استوى عليه في استحياء الشباب ، ثم أراد أن يبلغ الغاية من مبتغاه ، فذكر في صوت لا يكاد يبين أنه نازح عن هذه الديار فتوجه تلقاء باريس في طلب أواسط العلم وأعاليه ، وهذا ما قصد من أجله صاحبي الحائك ، فهو يروم تجهيز أربعة أثواب على الأنماط الفرنجية ، وراح يشرح في أسهاب فني لا يمت إلى علمه ، بصلة ، فهذا على صفة كيت وكيت ، وهذا على هيئة ذيت وذيت ، وهذا من الطراز الفلاني ، وهذا حسب النموذج اللاني، وهكذا حتى استوفى بيانه الشافي وضرب موعداً لانتجاز طلبته لا يزيد على أسبوعين

وبعد ما عاين صديقي الحائك جسد الفتى وحدته وقاسه من قدام ومن خلف ، ومن يمين ومن شمال ، تقدم إليه بالحساب الدقيق عن الأجر الذي يقتضيه لقاء صنعته ، وما يستلحقها، وعند هذا الحد رأيت الشاب ينتزع حافظة نقوده من جيبه كلمح البصر ، وينقد الحائك جملة من الدنانير حتى على عديدها ، وإن لم يخف علي ما أحدثت في نفس صاحبي من أثر إيجابي ما يقوى على وصفه حجر ولا يراع ، فانبسطت غضون وجهه والتمعت حدقتاه ، وطار به الجذل أي مطار

وما ن انصرف الشاب حتى نظر إلى صاحبي نظرة جمعت له الزمان كله ، وكان أن هم بمناقي وكان به جنة أو عراه هوس ، ولكنه عاد يشرح لي مقدار تفاؤله بمقدمي إذ يسر له الأمر ، وتفرج الكرب ، وعلم الله ما كنت سببا في شيء مما حدث ، وإن كان مدعاة لسروري أن أرى صديقا لي أثيراً عندي يزيح الله همه ويرزقه من حيث لا يحتسب

ولا يعني اعتذاري عن شيئا ، ولا ارتباطي بموعد استبق هذه الزورة بعسير الفكاك منه ، أن أمسي ضيفا عنده ، وكان أن ذبح لي دجاجة ليس كمثلها في الدجاج ! وقمت عليها فطويتها وما حقاتها من الرق والإدام ، حتى لحقني البشم وعييت عن التنفس والكلام !

من يوم هذه الواقعة أضحيت أثيراً عند صديق الحانك ، وزاد في إعزازي عن ذي قبل ، فكان يجد في تعقبي كلما أطلت الغياب ، ويترصد مظاني كنت حيث كنت ، ورأيت هذا منه فأبيت إلا ادلالا عليه ، لأعرف منزلتي عنده ، فكنت أشيح عنه كلما رأيته ، وأمر منه كلما رآني . وإن يشهد مني ذلك يستضحك كثيراً ويصيح لي : أيها الخبيث المكار ! وظلت هذه حالي معه حتى حالت بيني وبينه ظروف المكان ، فنزحت الدار وشط المزار ، وإني اليوم وإن كنت أستحس برحاء الألم لفراق ذياك الصديق ما برحت أجد في جوانب نفسي أثارة حلوة من بعض هذي الذكريات العذاب

* * *

كان بيني وبين صديق « فلان » ظل من الصداقة ممدود ، فكنا لا نفترق إلا على ميعاد من لقاء ، ما يكف أحدنا عن ازدياد الآخر مهما نجيء به الظروف ، وحيث كنت وحيث كان رانطوت على هذا الحب البريء جملة من الرمس وهو لا يزداد إلا نعماً وإيراقا وازدهاراً ، ذلك إلى ما بيني وبينه من المصالح التبادلة من أخذ وعطاء

كان صاحبي هذا لا يسافر إلا وأنا له مودع ، ولا يؤوب إلا وأنا له مستقبل ؛ وما كان يطوي عني شيئاً مما يختلج في قرارة نفسه من أمر . وهكذا كان شأني معه . فلما قضى الأمر وأريد له أن يبرح المدينة إلى الأقاليم ليقوم على أعماله المتشعبة ، لحقني من الحزن على فراقه ما يتقاصر اليراع عن إثباته . بكى يومها وبكيت أنا لمضاضة الافتراق ، وكان بيننا ميثاق غليظ على التوافي والادكار . وقدر بقسمه فلا يستدير الأسبوع حتى يعرد إلى الكتاب والكتابين ، وما كانت كتبه تحوي إلا كل لفظ جميل يدل على معنى جميل يكون له في نفسي وقع جميل

ولحقني في أحد الأعوام شكاة أزمنت معي وتطاولت مدتها حتى استيقنت أني في غايتها مستأثر بي الله أن حان حيني ، ووالله ما آسف على شيء مما حولي فما خلقت من سبد ولا لبد ، ولا مال عندي ولا ولد ، ويحضرني اسم هذا الصديق فأستشعر المرارة لفراقه وأكتب إليه رسالة تفيض بمعاني الوجيعة وبرحاء الألم ، راجيا أن يذكرني في نفسه فيمن يذكر من الصحب والصدقان . وإنه ليطالع كتابي فتفيض شجونه ويهبط الإسكندرية ليلا ثم يوفض إلى بيتي على غير موعد ، ويراني في فراشي مسهداً تعرقني الحمى فيبكي ويستعبر ، ويذكر أيامنا الحلوة التي طويناها في صداقة لا يزيدها اطراد الزمان إلا استحكاما

ويشاء الله العلي القدير أن أبل من مرضي ، فنعود إلى ما كنا فيه من تراسل وتزاور بين حين وحين

كان بعد ذلك أن بعثت إليه أرصيه بأمر عينته له ، هو من بعض شأني ، فأبطأ علي في الجواب حتى تداخلني الريب . وما هي إلا أيام حتى تلقيت منه كتابا ينمي إلى فيه والده ، وكان البقية الباقية من أصوله ، فوقع مني النبأ وقع الصاعقة على الهشيم ، ثم حوقلت واسترجعت وأرسلت إليه أعزيه معتذراً عما فرط مني قبل هذا

وعادت الأمور بيننا إلى مجاريها ، وكنت كلما رأيت من صاحبي فتوراً عن ذي قبل صرفت الأمر عن جهته ، وعدلت به إلى ما هو الأكرم بي وبه ، وغدوت أبعث إليه بالرسائل فلا يجيب ، وإذا ما تعجلته في أمر من الأمور ، اذكر بعد أمة ، وإذ ذاك أدركت أن الرجل تشاءم من رسائلي أو على الصحيح تشاءم بي

ويشاء القدر أن أرسل إليه كتابا أوصيه فيه بشخص أثير عندي ، وأعلم بعد يوم أو يومين أنه احتسب طفلا له

لقد كان وقع المصاب عندي ما يكاد يحتمل ، حتى خيل إلي أن الولد ولدي وأن الفجيعة فجيعتي ، وبكيت مريرا ثم عزيته عزاء جميلا ، وأنا أدرك أن منزلتي عنده قد هبطت وأني صرت حياله لا صديقا ولا شبه صديق

وهبط الإسكندرية في صيف من الأصياف ليقضي أياما دون أن يبلغني بأوبته ، واستقصى عنه في جميع منازله فلا أدركه ، وأراه يوما ساعة الأصيل في مشرب من المشارب العامة فلا يكاد يبصر بي من بعيد حتى يتطاير عن المائدة ، ويفر إلى داخل المقهى كأنما كنت غولا لاهم ! إلا افتراس الأناسي !

لقد لحقني الإشفاق على الرجل وتألمت أشد الألم لذهاب صداقة مكينة ، كنت أعتز بها جد الاعتزاز . وعلمت فيما علمت أن للتشاؤم أثره في حياة الأفراد ، وأنه قد يذهب بالصداقة الصدوق وما يستلحقها من مصالح وأعمال .

منصور جاب الله